مؤسسة الفرقان

لا إله إلا الله
الله رسول محمد

من سير أعلام الشهداء

49

ياسر بن فيصل درويش، المقدسيّ

"أبو ثابت الشّامي"

من سير أعلام الشهداء

(49)

ياســـر بن فيصل درويش، المقدسيّ

"أبو ثابت الشّامي"

مؤسسة الفرقان

ذو الحجة – 1432

بسم اللّه الرحمن الرحيم

نُبحر اليَوم في محيطٍ هادئٍ ثائر، ثابتٍ متحرّك، جمَع من الصّفات ما يحيّر النّاظر ويُسرّ الصّديق ويُشوّق السّامع.. إنّه بطل المشاهد وليث المعامع، السّابق للهجرة والجهاد أبو ثابت الشّامي رحمه اللّه ..

هو ياسر بن فيصل درويش، المقدسيّ الأصل، السّوري المَولد، من مواليد عام 1402 للهجرة، لم يكُن هذا الصّنديد الجريء قد تجاوز الثّلاثين من عمُره حين ترجّل عن جَواده، لكنّ عقْله أرجحُ من عُقول كثير من الكُهول.

من أسرةٍ صالحةٍ مُجاهدة، فثلاثةٌ من إخوته قُتلوا في العراق وهو رابعهم، كانَ صاحب عقيدةٍ سليمة ورجولة وشهامة قبل هِجرته، متزوّجٌ في بلاده وله طفل، منّ اللّه عليه بالهجْرة قبل غزو بغداد، ثم رجع إلى بلاده لعملٍ معيّن ثمّ عاد إلى العراق مع بداية الجهاد، والتَقى بالشّيخ أبي مصعب رحمه اللّه ورافَقه وأُعجِب الشّيخ به وبشجاعَته، وبعد فترةٍ من الزّمن كُلّف بقيادة مدينةِ القائم عسكريّاً، فأحْسَن قيادتها وكانت الفتْرة عصيبةً والمعاركُ فيها كرٌّ وفرّ، وأعداءُ اللّه من الصّليبيين وأذنابهم وضعوا ثِقلهم في هذه المناطق؛ لعلمهم بخُطورة وحساسيّة جغرافيتها، وكان رحمَه اللّهُ ومجموعةٌ من الإخوة - منهُم شقيقُه - همْ طليعة المُجاهدين في تلكَ المدينة، وقاموا بأعمالٍ أبْهرت العدوّ وصاروا مع إخوانهم السدّ المنيع في وجه العمليّات العسكريّة الكُبرى التي شُنّت على القائم - كعمليّة الرمح وغيرها-

وكانَ بطلُنا رحمه اللَّه في مقدّمة هؤلاء وأميراً على المنطقة، وبقيَ يُقاتل فيها حتّى انسحب الإخوة ولم يبقَ في المدينة سوى ستّة رجالٍ كانَ هو أحَدهم، لم يخرُج منها حتى جاءه الأمر بذلك.

ثمّ عمِل بعدها في عدّة مدن، فقَد عرفته مُدن العراقِ من شِمالها إلى جَنوبها، ومنْ شرْقها إلى غرْبها، يصُول ويجُول حتّى استقرّ لفتْرة من الزّمن في الرّمادي..

ومن الطّرائف أنّه كانَ ذات يومٍ جالساً مع الأمير العام للأنبار الشّيخ المجاهد جرّاح - رحمه اللَّه، فدخل عليهم أحدُ القادة العسكريّين وأراد جرّاح أنْ يُعرّف هذا الأخَ بأبي ثابت، فقال له: (هذا الأخ أبو ثابت المتحرّك)، كنايةً عن كَثرة تِجواله وتنقله ..

ثمّ أصبَح أميراً عسكرياً للأنبار، ولم تكن معركةٌ من المَعارك الكبيرة في الأنْبار إلاّ كانَ مشاركاً ومؤثراً فيها، حتّى امتلئ جسده بالجُروح والحُروق، ولم تزدْه الأيّام إلا خِبرة وثباتاً، وحينَ اشتدّت موجةُ الخيانةِ بعد إعلان دولة الإسلام، أُمر أن يتوجّه -رحمه اللَّه- إلى ولاية صلاح الدين، حيثُ عُيّن أميراً عسْكرياً عليها، خاضَ حينها أشْرس المعارك مع المرتدّين، وأدار الولاية في وقتٍ عصيبٍ جداً إدارة عسكريّة ناجحة، وقد جَمع أعداءُ اللَّه حدّهم وحديدَهم، فكانتْ الحالةُ في ذلك الوقت بحقّ حالةَ اختبارٍ وتمحيصٍ للصّف، بلْ كانت من أشدّ مراحل الجهادِ في العراق، وبحمد اللَّه فقد ثَبت أولياءُ اللَّه وأظْهروا بسالةً حار فيها أعداءُ اللَّه، ولا زالت آثارُه إلى يومِنا هذا..

وبعدها انتقل البطلُ إلى الموصل، وتسلّم مهمّة غيرَ عسكريّة، فاستغل فُرصة الفراغ الذي قد يتوفر له في طلب العِلم الشّرعي وحِفْظ القرآن، فحفِظ مُعظمه وتعلّم من العُلوم الشّرعية ما جعل منْ يُقابله يتعجّب من سِعة إدراكه وقوّة استحضاره، وقد ألهمَه اللّه قوّة في الحِفظ وسرعةً في الاستيعاب .

كانَ رحمه اللّه مدرسةً في كلّ شيء، فلا يُجارى في العُلوم العسكريّة والحربيّة، ولا يُجادل في النّحو أو البلاغة، ولا يُناقَش في الفقْه أو العقيدة، فقَد كانَ بحقٍّ منهلاً للواردين، وكانَت لنا في المنْزل معه دوراتٌ مُختلفة في شتّى العُلوم، ابتداءً بالأمور الأمنيّة والعسكريّة مروراً بالشرعية والإدارية وغيرها.

كانَ رحمه اللّه يجُول بينَ منازلِ الإخوة يوجّههم ويحرّضهم، فكانَ الأخ الكبيرَ النّاصح المشفق عليهم، وقد آتاه اللّه بسْطة في الجسم، فكلّ من رآه يظنّه أكبر من عمره .

وظلّ صاحبنا موضِع ثقة أمراءِ الجهاد الّذين مرّوا على العراق، كالشّيخ أبي مصعب الزّرقاوي وأبي أنس الشّامي وأبي محمد اللّبناني وأبي عمر البغداديّ وأبي حمْزة المُهاجر وأبي قَسورة المغربيّ رحمهم اللّه جميعاً، كما كانَ موضعَ ثقةِ أمير المؤمنين وقرّة عُيون الموحّدين الشّيخ أبي بكرٍ البغداديّ أطالَ اللّه في الإسلام بقاءه.

سألتُ هذا الجَبل ذاتَ يومٍ، ماهو الموقف الذي له أثرٌ كبير في نفسك ولا زلت تذكره؟، فقال: حينَما كنتُ في صلاح الدّين، كانَ هناكَ أخٌ مهاجرٌ اسمه أبو عبد اللّه، وكانَ من أهلِ الجزيرة العربيّة، ويظهَر من تعامُله وشهامته أنّه

من أهلِ الصّحراء، وقد سلّمته إحدى مفارز التّجهيز والتّفخيخ، وذاتَ يوم حينَما كنتُ أسيرُ على إحدى الطّرق القريبة من سامرّاء، رأيتُ سيّارته آتيةً من بعيد، فأشرْتُ إليه بالوقوف، لكنّه مرّ من أمامي ولم يقِف بلْ نظَر إليّ وسلّم بيده وهو على سُرعته، وحينَها علمْت أنّ هناك شيئاً ما، فتركتُه ثمّ توقّفت عندَ أحد المحلّات وتركتُ سيّارتي وجئتُه بسيّارة أخرى لألحقَ به فرأيته ترجّل ووقف كأنّه يريد أن يشتري من صاحِب المحلّ، فذهبتُ إليه وسألْته: مالخبر؟، قال لي: إنّ هذه الطّائرة لها أكثرُ من ستّ ساعاتٍ وهي تحُوم فوقَ سيّارتي، وقد ذهبتُ إلى أماكِن بعيدةٍ في الصّحراء وهي تتْبعُني، وكأنّها معلّقة بسيارتي. فقلت له: أترُك السيّارة. فقال لي: أنا حالياً لم أقابلْ أيّ أخٍ، ولم أذهَب لأي مكان حسّاسٍ أو مضافة، لأنّي على يَقين بأنها ستتعرّف على هذه الأماكن، وقد قرّرت أنْ أذهبَ بهم إلى مكانٍ كنتُ أخلَيْتُه قبلَ أكثر من شهر، وسوف أنتظرُهم هناك .

قلت له: هذا غيرُ صحيح. فقال لي: إذا تأخّرت معك في النّقاش أو التّفكير أكثر من ذلك فسوف أُلحق ضرراً بك وبالإخوة؛ فأعداءُ اللّه لا شكّ أنّهم حالياً سيأتون إلى هنا إما بالمروحيّات أو بالآليّات، وليس هناكَ وقتٌ كافٍ بالنسبة لي.. ثم عانقني وقال: سلِّم لي على الإخوة وسامحوني .

وسلّمَني الأموال التي كانَت معه، وخلَع ساعة يده وقلمه وحتّى سِواكه، ولم يُبقِ معه سوى سلاحه الشّخصي وملابسه، ثمّ خرج بالسيّارة مسرعا.. وحينَما انصرف، رأيت الطّائرة وهي تتبعُه ثمّ بدأ يتوارى عني..

وكانَت لحظات لا يستطيعُ أبلغُ الأدباء أن يعبّر عنها... ولم ألْبث طويلاً حتى رأيتُ رتلاً من الصّليبيين تُسانده المِروحيّات متوجّهين إلى مكانه، حينَها علمتُ بأنّ ما توقّعه وتمنّاه قد حانَ بالفِعل، ومنْ بعيدٍ سمعتُ صوتَ قصفِ المِروحيّات... وتراءى لي وهو ينتظُر أعداءَ اللّه وهم يأتون إليه..

فأيّ قلبٍ يحملُه هذا الرّجل وأيّ إيثارٍ وأيّ شهامة !..

ومنَ الغدِ قرّرت الذّهاب إلى مكانِه وحْدي، فرأيتُ ما يفتّ الكبد ويقطّع القلْب، رأيتُ مكانَ معركةٍ وكأنّها بين جيْشَين وليست معَ رجلٍ شبه أعزل.. واللّه إنّ رجالنا من أعجبِ أهلِ الأرض!، كيفَ وضعَ اللّهُ المهابةَ منهم في قُلوب عدوّهم، لقد علموا أنّه وحيدٌ وليسَ معه أحدٌ، فكيف لو كانوا إثنين؟..

[الاثنان..! سَلْ عنهم تِكريت ومجلِسها.. والعِشرين سَلْ عنهم منهاتن وتوأمها، هؤلاءِ هم رجالُنا وفُرساننا.. وبهم تفْخَر الرّجال وتُزين المجالس بذكرهم].

يقول أبو ثابت.. رأيتُ أبا عبد اللّه وهو مضرّجٌ بدمائه الّتي لا زالت تقطُر دافئة.. وظُروف رصاصاتِ سِلاحه تُخبر عنْ فِعله وعزّة نفسه ..

حَملْته وأخذْته في سيّارتي ووارَيتُ جسَده في الثّرى.. نظرتُ إلى الدّنيا وقد أصبحت في عيني أحقرَ منْ جناح البعوضة... واللّه لقَد علّمني أعظَم درسٍ في حياتي.

رحمكما اللّه يا أبا عبد اللّه ويا أبا ثابت.. إذاً هذا هو الموقفُ الّذي أثّر بالرّجل الصّنديد المقاتل، وإنّه واللّه لموقفٌ يُشرّف التاريخ أنْ يسطّره في صفحاته عن سيرة هؤلاء الرّجال.

نعود إلى أبي ثابت ..

لقدْ كانَ من نِعَم اللّه عليّ أن أكرمَني بمُرافقته والعملِ معه آخر خمسة أشهرٍ من حياته جرَت فيها أحداثٌ كثيرة، أقلّها كفيلٌ بكشفِ معدن الرّجال، ولا زلْت أتذكّر نصائحَه ومواقِفه.

بقِينا مُتلازمَين حتّى جاءَ اليومُ الموعودُ والقدَر المَحتوم الذي لا مناصَ عنه، فبعدَ أنْ نجا هذا الصّنديد منْ عشراتِ المعارك والقصْف المكثّف، وخرَج من أضْيق المناطق حصاراً، يأتيه موعده على غير قصد من العدوّ وغيرَ معرفةٍ به، فقد اشتَبك مع دوريّة استوقفته وشكّت في أمره فقُتل رحمه اللّه..

نعم قُتل زينةُ الرّجال، وأسدُ النّزال، بعدَ أنْ كانَ يخوضُ المعاركَ وهو يقولُ لصحبه: أظنّ هذه آخرَ معركةٍ أخوضُها، يخرُج منْ هذه الأهوال سالماً معافاً ليُقتل في ميدانٍ آخرَ لم يكن في الحُسبان فسبحان اللّه، هذا هو الأجَلُ لا تعْلم متى وكيف يأتيك ..

وبعدَ طولِ جِلادٍ ومُقاتلة، ترجّل فارسٌ من أشْرس فُرسان العراق، وأكثَرهم إحاطةً وخبْرة بالأرضِ والمجتمع، حوى صدرُه العديدَ من العُلوم، ولم يترك مجالاً إلاّ قدّم له ونصح فيه، وكانَ له أثرٌ كبيرٌ في غزوات الأسير المباركة.

للّه أنتَ أيّها الرّاحل المُكثر من كلّ خير، ما مِن مكانٍ في هذه البلاد إلا ويشهدُ لك. سَلْ عنه البصرةَ وزاخو ومندلي والعكاشات تنبيك عن فتى الحُروب وكهلِها ومسعر نارها وقاتِل أرضِها، حسَن الوجْه جميلَ الطّلة بهيِّها، لا يُبالي بملْبسٍ أو مأكلٍ أو مجلس، يتكيّف معَ الظّروف كيفما كانت، شهمٌ غيورٌ كريمٌ مؤثرٌ صابر.. واللّه إنّ الصّفات تتزاحمُ حين تأتي سيرتُك، فما مِنْ صفةٍ يحبّها الرّجال المؤمنون إلاّ وأجدُها فيكَ بارزةً مستوفية..

أيّها الشّهم العزيزُ، لقد علّمتني الأيّام أن يكونَ قلبي كالصّخر وعيني كالورق..

فلو كنت أبكي من فراق صبابةٍ لأذريت عيني دمعة لا ألامها
ولكن لي عيناً كتوماً بمائها جموداً بماء الناظرين انسجامها

ولكنّي حينَ أذكرك وأذكر وقفاتِك العظيمة ورأيكَ السّديد ونُصحك الرّشيد، وأذكُر يوم كنّا مُصبحين قبل يومٍ من مقْتلك ونحنُ نسيرُ في يومٍ شديدِ الحرّ قلتَ لي إنّك تشعُر بالدّوار والجَفاف، وكنتَ حينَها صائماً فقلتُ لك: لمَ لا تُفطر وقد وافَق يوم صومِك عملٌ شاقّ. فقلتَ لي: إنّك تشعُر بأنّ الصّوم يطهّر عملَك ويزكّي نفْسك، فتشعُر وأنتَ صائمٌ بالقُرب منَ اللّه والارتباط الوثيق به، وخُصوصاً إذا رأيتَ النّاس في الشّوارع وهم يأكلون هائمون ومشغولون في مشاغِل دُنياهم ... يا اللّه! ...

أبـا ثابـت، لقـد حُـقّ لأمّـك وأبيـكَ وزوجِـك وبنِيـك أنْ يتبـاهَوا بـكَ ويرفعـوا رُؤوسهم فواللّه لو كنتَ في أمّة تعرفُ حـقّ رجالها لكـانَ ذكـرُك بـينَ النّـاس غيرَ ذلك، ولّما بقيـتَ في دائـرة الطّـب العـدليّ أكثـرَ مـن أُسـبوع والصّـليبيّون يمنَعون الاقترابَ منك، ثم تُؤخذ وتُدفن في مكانٍ لا يعرفُك فيه أحد ..

آهٍ يا غريباً ويا شريداً ويا شهيداً ويا حبيباً لقد تركَ رحيلُك في قلْبي لوعـةً لا تَسكُن إلا بلقاك..

حسْبُك -إن شاء اللّه- الذّكر في الملأ الأعلى وهو ما أرخَصْت روحَك لأجله.

ولكننـــي أبكـــي بعـــين ســـخينة على جلل تبكي له عين أمثـالي
فراق خليل أو شجى يستشـفني لخلـــة أمـــر لا يقـــوم لهـــا مـــالي
فيا كبدي حتى متى القلب موجع بثكـــل حبيـــب أو تعـــذر إفضـــال

فيا ربّ إنّي أحتسبُ عندَك أنّ عبْدك هذا قد قال لي في يوم من الأيام إنّه يحبّني فيك وقد رحَل إليك، فاللّهم اجمعْني به في الفِردوس الأعلى منَ الجنّة مع النّبيين والصّديقين والشُهداء والصّالحين، وحَسُن أولئك رفيقاً.

اللّهم اجْزه خيرَ ما جَزيتَ شهيداً في سبيلك يا رب العالمين...

وكتبـــه

عبد الأعلى المُضريّ